رسالة في خبر تأليف الألحان
ورسالة في أجزاء خبرية في الموسيقى
ليعقوب بن اسحق الكندى

بقلم : الدكتور محمود أحمد الحفنى

الكندى ، هو أبو يوسف يعقوب • ووالده اسحق أمير الكوفة الذى استمرت امارته بها فى عهد ثلاثة من خلفاء الدولة العباسية ، المهدى والهادى والرشيد • وقد تحدر من الأصول الرفيعة فى البيوتات العربية • وجده الأشعث بن قيس صحابى جليل • وبقية أجداده ملوك فى الجاهلية وأمراء فى الاسلام •

انتقل الكندى الى بغداد فتى قد شب فى أحضان العلوم والفنون ، والدولة فى أوج مجدها وفى مشرق نهضتها الثقافية • وقد تعلم الحساب والرياضيات والطبيعيات • وأجاد معرفة الطب والمنطق والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك • وأحاط بالثقافتين اليونانية والفارسية واستقى من موارد الحكمة الهندية • وقد تعمق فى معرفته لليونانية حتى تخيره المأمون بين حكماء العرب الذين قاموا بترجمة المكتبة اليونانية وما اشتملت عليه من علوم وفنون • وقد عد الكندى فى صدر أربعة هم حذاق الترجمة وحملة لوائها •

وكان الكندى أول نجم لمع فى سفر التاريخ بين هؤلاء الأعلام من الأمة العربية • ولم يتقدمه اسم من الأسماء من هذه السلالة ولم نعرف أحدا سبقه الى مزاولة هذه الصناعات منذ ظهرت الدولة الاسلامية • واذا كان الفارابى والرئيس ابن سينا وغيرهما قدعلت سمعتهم وحلقت شهرتهم وزاد حظهم من المعرفة فقد كان ذلك بحكم التطور ، ولكن للبداية قدرها ، والفضل للمتقدم •

وقد كاد تاريخ الثقافة العربية يطبق سجله واجماعه على شهرة الكندى من ناحية الفلسفة وحدها • ولعل كثيرا من أهل العلم والأدب اختلفت عليهم العصور وهم لا يتعدون به منطقة العلوم العقلية البحتة • وقد تنبه تاريخ الموسيقى

فى العهد الأخير الى هذا العبقرى فألقى عليه أضواء البحث والتنقيب والدراسة • فبعث من شخصيته ما كان مجهولا ، ونشر من تراثه ما كان مطويا ، ليتقدم به مرة أخرى الى الدنيا لا كعالم من علماء الموسيقى فحسب ، بل كأقدم عربى وصلت الينا مؤلفاته فى هذه الصناعة •

كان العربى فى بداوته الجاهلية شاعرا بطبعة ، موسيقيا بفطرته وسيلقته • وان فى انسجام أوزان الشعر العربى وتناسق تفاعيله فى عدد حروفها المتحركة والساكنة وتوافق تعاقبها ، بل فى تناسب أجزائه ورنين قوافيه لدليلا على تلك الموسيقية الفطرية • وكان الترنم بالشعر أول أنواع الغناء الجاهلى • ولم ينتحل العرب فيه يومئذ علما ولا عرفوا صناعة • وكان الغالب فى طبيعتهم الموسيقية التغنى بالرجز يرسلونه ارتجالا لبساطة تفاعيله ويسر تناوله • وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات بعض المناسبة • وهذا الساذج من التلاحين لا يبعد أن تتفطن له الصباع من غير تعليم شأن كل ساذج من الصنائع • وهذا ما نلحظه واضحا فى المطبوعين على الموازين الشعرية والغناء المرتجل وتوقيع الرقص وأمثال ذلك •

ظل الحال كذلك ، أو ما يقرب منه ، طوال عصر الجاهلية وصدر الاسلام • فلما انتقل الحكم الى الأمويين دخل الاسلام فى عصر زاهر • واتسعت فتوحه شرقا حتى وصلت الصين وغربا حتى بلغت المحيط والأندلس • وزاد اتصال العرب بالمدنيات الفارسية واليونانية والمصرية ، فازدهرت الحضارة العربية وعمت الشرق أجمع • ووضعت الألحان العربية على ايقاعات متعددة وخضعت فى تصنيفها للقواعد والنظريات • وذلك على خلاف ما كانت عليه الحال من قبل •

بدىء فى العصر الأموى بوضع أول تصانيف عربية فى أخبار الموسيقى والغناء • فقد ألف يونس الكاتب « كتاب النغم » و « كتاب القيان » فكانا نواة لما صنف بعد ذلك فى هذا الباب ومرجعا لكتاب الأغانى الكبير الذى وضعه أبو الفرج الأصفهانى فيما بعد •

كما كان الخليل بن أحمد أول من عنى بهذه الناحية من التأليف فى الدولة العباسية ، فوضع « كتاب النغم » و « كتاب الايقاع » • ثم استكمل اسحاق الموصلى هذه المؤلفات • وقد تناقل الرواة أسبقية هؤلاء العلماء للكندى فى التصنيف دون أن تصل الينا آثار مؤلفات أولئك الأعلام اطلاقا • كما خلت دور المكتبات العامة من وجود أى مصنف من مصنفاتهم الموسيقية •

ثم جاء الكندى فكتب ما يربى على سبعة مؤلفات فى الموسيقى (١) بقى منها فى دور الكتب العامة رسالتان مقطوع بنسبتهما اليه ، احداهما مخطوطة معنونة باسم « رسالة فى خبر تأليف الألحان » محفوظة بدار الكتب بأكسفورد تحت رقم ٢٣٦١ • أما الأخرى فتسمى « رسالة فى أجزاء خبرية فى الموسيقى » وهذه المخطوطة كانت محفوظة بدار الكتب العامة ببرلين تحت رقم ٥٥٠٣ (٢) • وتعتبر هاتان المخطوطتان أقدم

(١) ورد فى الفهرس لابن النديم أسماء كتب الكندى الموسيقية كالآتى :

رسالة فى ترتيب النغم الدالة على طبائع الأشخاص العالية وتشابه التاليف •

رسالة فى الايقاع • رسالة فى المدخل الى صناعة الموسيقى • رسالة فى خبر صناعة التاليف • رسالة فى صناعة الشعر • رسالة فى الاخبار عن صناعة الموسيقى •

(٢) نقلت هذه المخطوطة فى أثناء الحرب العالمية الثانية مع غيرها من المخطوطات الى مكان ما فى ألمانيا الغربية •

ما وصل الينا حتى الآن من المصنفات العربية فى الموسيقى (٣) .

وفيما يلى حديث موجز عن كل منهما .

(١) رسالة فى خبر تأليف الألحان (٤)

عالج الكندى فى هذه الرسالة علم التأليف ، وطبيعة الأصوات وتركيب النغمات . مع تطبيق ذلك على آلة العود . ويصف الكندى السلم الموسيقى العربى مشتملا على اثنتى عشرة نغمة فهو مطابق لما نعرفه فى العصر الحديث بالسلم الملون « الكروماتى » ، وهو السلم ذو أنصاف الأبعاد الطنينية . وهو يطلق على هذه النغمات أسماء الحروف الأبجدية العربية حسب ترتيبها من ا الى ل .

ويخضع تأليف السلالم الموسيقية لنظام الأجناس التى تبنى عليها موسيقات الممالك القديمة ومقامات الموسيقى العربية حتى اليوم . وقد أدخل الكندى على العود وترا خامسا (نظريا) لامكان الحصول الجمع الكامل أو الديوان المضاعف (أى ديوانين) . كما زاد دستانين فى أصوات كل وتر ، أحدهما المجنب على بعد ٩٠ سنت من مطلق الوتر والثانى الوسطى على بعد ٢٩٤ سنت من مطلق الوتر (وعلى بعد ٩٠ سنت من مطلق السبابة) .

وهكذا يتركب العود عند الفارابى من خمسة أوتار وهى من الغلظ الى الحدة على الترتيب « البتم » و « المثلث » و « المثنى » و « الزير الأول » و « الزير الثانى » . ويختص كل وتر بستة أصوات يكون أولها مطلق الوتر أى الصوت الذى يخرج من الوتر دون عفق عليه بالأصابع . وتستخرج الأصوات الباقية بالعنق بواسطة الأصابع على الترتيب : السبابة ، والوسطى ، والبنصر ، والخنصر . ونغمة الخنصر فى كل وتر تكون على بعد ذى الأربع (أى مسافة الرابعة التامة) من مطلقة ، وهى نفس نغمة مطلق الوتر الذى يليه . وتتكرر النغمات فى الجمع الثانى (أى الأوكتاف الثانى) على نفس ترتيب الجمع الأول وبمسمياته .

فيما يلى جدول يبين أسماء أوتار العود وتوزيع النغمات عليها ومقادير أبعادها بالسنت طبقا لما استخرجناه من هذه الرسالة :

(٣) وهناك غيرهما مخطوطتان يغلب الدكتور هنرى فارمر فى كتابه .

نسبتهما للكندى وهما مخطوطتان كانتا محفوظتين بدار الكتب العامة ببرلين تحت رقم ٥٥٣٠ ورقم ٥٥٣١

(٤) حقق هذه الرسالة ونشرها مترجمة الى اللغة الألمانية الدكتور روبرت لاخمان والدكتور محمود احمد الحفنى مع الشرح والتعليق ، طبع ليبزج سنة ١٩٣١

دساتين	بم		مثلث		مثنى		زير أول		زير ثانى	
مطلق	ا	٠	و	٤٩٨	ك	٩٩٦	د	٢٩٤	ط	٧٩٢
مجنب	ب	٩٠	ز	٥٨٨	ل	١٠٨٦	ه	٣٨٤	ى	٨٨٢
سبابة	ج	٢٠٤	ح	٧٠٢	ا	١٢٠٠	و	٤٩٨	ك	٩٩٦
وسطى	د	٢٩٤	ط	٧٩٢	ب	٩٠	ز	٥٨٨	ل	١٠٨٦
بنصر	ه	٤٠٨	ى	٩٠٦	ج	٢٠٤	ح	٧٠٢	ا	١٢٠٠
خنصر	و	٤٩٨	ك	٩٩٦	د	٢٩٤	ط	٧٩٢	ب	٩٠

ومما هو جدير بالملاحظة أن نسب أبعاد الاثنتى عشرة نغمة المشتمل عليها الجمع (الأوكتاف) العربى القديم على نحو ما وصفه الكندى متفقة تمام الاتفاق مع نسب أبعاد سلم فيثاغورس (١) •

ثم هو يجارى المصنفات اليونانية فيطلق على أغلظ النغمات فى البعد الذى بالكل (الأوكتاف) « المفروضة » وهى ما يسميها اليونانيون بروسلمبانومينوس •

والرسالة ملأى بالاصطلاحات الموسيقية المترجمة عن اليونانية لأسماء الدرجات ومسميات أنواع التأليف • كما تشف عن مدى معرفة صاحبها بقوانين اقليدس وبطليموس •

ومن الحق ان نقرر ان الكندى فى القسم الخامس من تلك الرسالة وهو القسم الخاص بأنواع التأليف وقد أسماه « صنعة الألحان » لم يكتف بذكر الأنواع المعروفة فى كتب اليونان بل زاد عليها أنواعا جديدة وصفها وصفا مسهبا •

ولعل من المهم بعد ذلك أن نوضح كيف كان الكندى وأقرانه من علماء العرب المتقدمين يعبرون عن أبعاد درجات السلم وعن النسب العددية بين الأصوات • وانا نسوق على سبيل المثال ما يقوله الكندى فى بداية رسالته هذه :

« و ك الى ا كله وثمن كله • وقد بينا أن فضل الذى بالخمسة على الذى بالأربعة كل وثمن كل ••• » الخ (١) •

(٢) رسالة فى أجزاء خبرية فى الموسيقى (١)

أما تلك المخطوطة وهى الثانية من رسالتى الكندى فى الموسيقى فهى بحث طريف شيق ، لم يقتصر الشأن فيه على معالجة الموسيقى من ناحيتها الفنية وحدها بل تناول بحوثا ضافية رائعة تعد فى أكثر مسائلها من بحوث العصر الحديث وان كان صاحبها قد تقدم هذا الزمن بأكثر من ألف عام •

وفى مقالات هذه الرسالة وبين ثنايا فصولها العديدة ندخل على الموسيقى من عالم جديد لم يكن معروفا من قبل • ولعله لم يعرف الا حين استيقظ العلم الى التحليل الجديد فى القرن العشرين أو قبيله •

---

(١) سلم فيثاغورس مبنى على أساس الأطوال وعلى بعد الذى بالخمس (مسافة الخامسة) ونسبته ٢ : ٣ فاذا بدأنا من صوت ما وليكن دو مثلا (بحسب التعبير الحديث) فانه بعد ١٢ دورة خمساية نصل الى الجواب السابع تقريبا • ومعنى ذلك رياضيا أن ($\frac{٢}{٣}$) ١٢ = ($\frac{١}{٢}$) ٧ • والفرق بين طرفى هذه المعادلة فرق بسيط يمكن التجاوز عنه = $\frac{٧٤}{٧٣}$ تقريبا وهو صوت جزء من أربعة وسبعين جزءا من الوتر • وهذا الفرق البسيط يسمى « كوما » •

وقيمة أبعاد هذا السلم هى :

نسبة الأطوال :

دو	رى	مى	فا	صول	لا	سى	دو
١	$\frac{٨}{٩}$	$\frac{٦٤}{٨١}$	$\frac{٣}{٤}$	$\frac{٢}{٣}$	$\frac{١٦}{٢٧}$	$\frac{١٢٨}{٢٤٣}$	$\frac{١}{٢}$

التقدير بالسنت :

٠	٢٠٤	٤٠٨	٤٩٨	٧٠٢	٩٠٦	١١١٠	١٢٠٠

(١) قد تبين فى الجدول المتقدم الذى أوضحنا فيه أسماء أوتار العود ومواضع الأصوات من أوتار العود الخمسة أن ك رمز لصوت مطلق وتر المثنى وأن أ هو صوت اصبع السبابة على هذا الوتر • واذن فالبعد بين الصوتين ك أ هو حسب اصطلاحنا بعد طنينى • ويعبر عنه الكندى بقوله انه يساوى « كله وثمن كله » أى أنه اذا خرجت ك من مطلق الوتر الذى يبلغ طوله ٩٠ سم مثلا فان الصوت أ يخرج من ٨٠ سم من هذا الوتر • واذن يكون طول الوتر الذى أخرج الصوت ك = ١ + $\frac{١}{٨}$ طول الوتر الذى أخرج النغمة التالية • وتكون ك : أ = كله وثمن كله • وعلى هذا النحو فان مسافة الخامسة تزيد على مسافة الرابعة بعد طنينى • ويعبر الكندى عن ذلك بقوله « ان فضل الذى بالخمسة على الذى بالأربعة كل وثمن كل »

(١) قام بتحقيق هذه الرسالة وشرحها والتعليق عليها الدكتور محمود احمد الحفنى ونشرتها اللجنة الموسيقية العليا بالقاهرة سنة ١٩٦٠

وها نحن نرى الموسيقى فى تلك الرسالة مشرفة على جميع نواحى الحياة ، غير مقصورة على اللحن والايقاع ، ولا على النفخ والعزف بالآلات، ولا على ما يتطرق الى مداخل النفس من طريق الحاسة السمعية • بل يتخطى الكندى بالموسيقى مسافة السمع القصيرة فيخرج من الألحان الى الألوان ، ويقف بنا على طبيعة كل لون وتأثيره فى النفس • ويضع بينها النظائر والأشباه والأقيسة ، مقترنة بنتائجها التى تنتهى اليها • فالألوان فى نظره كالألحان تعبر عن المعانى النفسية والقوى الحيوية وتدل عليها وتؤدى اليها •

ولم تكون الألوان والألحان هى المسيطرة وحدها على تلك القوى المنبهة للملكات والسجايا !! فهذه هى العطور أيضا — ويسميها الأرائح — انها موسيقى صامتة • وهى فى مملكة الأراييح لها أثرها وخطرها • فهذه زهرة تثير النخوة ، وتلك أخرى تهيج بعبيرها لواعج الشوق ، وثالثة تحمل فى عطرها العجب والكبر• وهى جميعا فيما تنبه من القوى كالألحان والألوان•

ولكن ثمة رحلة أخرى هى الحاسة الذوقية من الألفاظ المنطقية المستمدة من العقل وهو أشرف المخلوقات •

والكندى بعد ذلك لايترك شيئا حتى حاسة اللمس ، وان كان لا يفردها ببحث خاص لأنها على حد تعبيره — تشترك مع غيرها فى أكثر حالاتها •

واذا كنا ننشد تقديم الكندى موسيقيا لمن لايعونه ، كذلك فقد كشف لنا فى مصنفه هذا أنه شىء آخر حتى فى الموسيقى • فقد فلسفها وسما بها ونشر منها أشعة وأضواء على جميع الأشياء • ولم يجعلها مقصورة على حاسة واحدة• فقد قسم الموسيقى الى نوعين موسيقى معزوفة مسموعة مرتلة ، وأخرى تنظرها العين وتتعطر بها الحياة ويستمتع بها العقل فكرا وشعرا ومنطقا •

فاذا شعر الكندى بأننا قد بدأنا أن نسأم فى مصنفه جدية البحث الدسم راح يرفه عنا بفصل ممتع من نوادر الموسيقى الفلسفية أو الفلسفة الموسيقية • فهو فى ختام رسالته يتوج الموسيقى بنغمات فى كلمات فيقول :

« الغناء شريفة تعذرت على المنطق فى قدرته ولم يقو على اخراجها فأخرجتها النفس لحنا ، فلما ظهرت سرت بها وطربت اليها • فاسمعوا من النفس وناجوها وراعوا مناجاة الطبيعة والتأمل لها » •

ومن ذلك قوله أيضا :

« فضل الموسيقى يأتلف مع كل آلة كالرجل الأديب المؤتلف مع كل بشر » •

وكذلك ما حدث به الكندى رواية على سبيل التندر قال :

« خرج بعض الفلاسفة مع تلميذ له فسمع صوت القيثارة فقال للتلميذ امض بنا الى هذا القيثارى لعله يفيدنا صورة شريفة • فلما قربا منه سمعا صوتا رديئا وتأليفا غير متقن • فقال لتلميذه : زعم أهل الكهانة والزجر أن صوت البومة يدل على موت انسان ، فان كان ذلك حقا فصوت هذا الرجل يدل على موت البومة » •

لقد عاش الكندى بين ترف المال وترف العلم، ينهل الثقافات من جميع مواردها الممكنة ، حتى أهاجت عليه عبقريته الخصوم والحساد وخلقت منه

فيلسوفا متشائما ، ضيق الصدر يأنس بالوحدة وينشد الخير فى العزلة ، ويرى الظلم والوحشة فى أقربائه الأدمين حتى فى شقيقه وعمه وخاله، والمرء عادة يلتمس السعادة بين هؤلاء • ولكن حياة الكندى لم تعد تحتمل • فهو يضمن وصاياه فى هذه الرسالة أن « الأخ فخ ، والعم غم ، والخال وبال ، والولد كمد ، والأقارب عقارب»•

وقد رأى الكندى بعينيه تطاول الجهلة والحمقى وتمتعهم بعليا المكانات حتى يجوع أهل الحكمة والمعرفة ، فراح يقول :

أناف الذنا بى على الأرؤس
فغمض جفونك أو نكس
وضائل سوادك واقبض يديك
وفى عقر بيتك فاستجلس
وعند الهك فابغ العلـ
ـو وبالوحدة اليوم فاستأنس
فان الغنى فى قلوب الرجال
وان التعزز بالأنفس
وكائن (١) ترى من أخى عسرة
غنى وذى ثروة مفلس
ومن قائم شخصه ميت
على أنه بعد لم يرمس
فان تطعم النفس ماتشتهى
تقيك جميع الذى تحتسى

ولعل من الخير أن نختتم حديثنا عن الكندى بما أورده فى تلك الرسالة عن مشاكلة أوتار العود الأربعة لما يقابلها من الفلك والبروج والعناصر ومهب الرياح وفصول السنة وأرباع الشهر وأرباع اليوم وأركان البدن وأرباع الأسنان وقوى النفس المنبعثة فى الرأس وقواها الكائنة فى البدن وافعالها الكائنة فى الحيوان ، حيث يقول :

« أما كمية عدد الأوتار فأربعة وهى البم والمثلث والمثنى والزير • فأما الزير فانه جعل مناسبا من أرباع الفلك لأول جزء من وسط السماء الى آخر جزء من المغرب • ومن أرباع البروج من أول جزء من السرطان الى آخر جزء من السنبلة • ومن أرباع القمر من وقت تربيعه الأيسر للشمس الى استقباله ومن أركان الغاصر الى النار • ومن الرياح الى الجنوب •ومن فصول السنة الى الصيف • ومن أرباع الشهور من أول يوم السابع الى الرابع عشر • ومن أرباع اليوم من نصف النهار الى مغيب نصف القرص • ومن أركان البدن الى الصفراء • ومن أرباع الأسنان الى الشباب • ومن قوى النفس المنبعثة فى الرأس الى القوى الفكرية ، ومن قواها فى البدن الى القوة الجاذبة • ومن أفعالها الظاهرة فى الحيوان الى الشجاعة » •

ويمضى الفارابى فى شرح مثل هذه المشاكلة لبقية أوتار العود الثلاثة « المثنى » و « المثلث » و « البم » •

ثم يتحدث عن أثر هذه الأوتار اذا امتزجت بعضها ببعض فيقول :

« فاذا مزج بينها كان كمزاج الطبائع الأربع ، وتظهر من آثارها فى أفعال النفس خلاف ما ظهر من تأثيرها على الانفراد • فمزاج الزير والمثلث كممازجة الشجاعة للجبن وهو الاعتدال وكذلك

(١) كائن لغة فى كأين

بينهما ائتلاف • وممازجة المثنى والبم كممازجة السرور والحزن وهو الاعتدال وكذلك ائتلاف• وتعرض لها أيضا خواص فى أفعالها من جهـة قسمة الدساتين واختلاف أوضـاع الأصـابع والابتداءات والمقاطع وما يتهيأ للمرتاض أن يقف منها عند فحصه عنها على حـالات كثيرة من الاختلاف فى الوضع • والذى يحصل من جهة تأثيرات أفعال الزير فى النفس حركة الشجاعة ومن طبع الشجاعة الملك والجود والكرم • ومن تأثيرات المثنى الغفـل ومن طبع الغفل السرور واللذة والعشق وحسن الخلق • ومن طبع المثلث الجبن ومن طبع الجبن الذل والبخـل والندامة والضعة • ومن طبع البم الحلم ومن طبع الحلم السرور تارة والحـزن تارة وانقطـاع النفس والمرثية والكمدة » •

وكانت وفاة الكندى عام ٢٦٠ هـ (٨٧٤ م)

دكتور محمود أحمد الحفنى